العرب
الجمعة 2020/12/04
السنة 43 العدد 11901

كتابة الرواية.. هل هي غاية في حدّ ذاتها؟

كل المتعلمين صاروا يكتبون الروايات ويسردون حكاياتهم الشخصية طمعا في الشهرة

لسنا وحدنا، نحن العرب، المهووسين بكتابة الرواية في هذه المرحلة، فالفرنسيون أيضا يمعنون في كتابتها ونشرها بشكل فاق كلّ حدّ حتى صار المهتمون يوردون الأرقام في كل موسم كما يوردها هواة الأرقام القياسية في المنافسات الرياضية. ولكن هل الغاية منها إضافة أثر جادّ إلى منجز أدبي راسخ، أم وضع لبنة لمشروع طويل النفَس، أم إعلان الثورة على السائد وتقديم مقاربة مبتكرة يسير على هديها رُكبان الفن الروائي؟ أم هي مجرد إضافة اسم إلى المدونة الروائية؟

أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

الرأي الشائع أن الكمّ يفرز الكيف، ولكن إذا كانت الوفرة رديئة بشكل طاغ تحولت إلى أعشاب طفيلية تخنق النبتَ الجيّد وتمنع نموّه وظهوره. كذلك الإنتاج الروائي عندنا، فقد استشرت الرداءة بشكل يفوق كلّ حدّ، والسبب أن المتعلمين على اختلاف درجاتهم أقبلوا على كتابة الرواية وكأنها فرض عين سيحاسبون على تركه يوم القيامة.

> في غياب النقد النزيه، الذي يغربل الأعمال ليُحلّ كل تجربة محلّها، أمكن لأعمال رديئة أن تحتل الواجهة

لقد استبد بكافة الشرائح المتعلمة هوس كتابة الرواية دون أن يسعوا للإلمام بشروطها وامتلاك أدواتها، فكانت النتيجة فيضا من المنشورات التي ليس لها من الأدب الروائي سوى عبارة "رواية" مرسومة على الأغلفة.

لمن يكتب هؤلاء

في غياب النقد النزيه، الذي يغربل الأعمال ليُحلّ كل تجربة محلّها، أمكن للغثاء أن يعمّ ويستشري، بل ويحتل الواجهة، خاصة مع ظهور المواقع الاجتماعية التي يضفي فيها مستخدموها على بعضهم بعضا صفة "الكبير"، وهي صفة نكاد نتفرّد بها بين سائر الأمم، فقد لاحظنا إطلاقها على من لم ينتج سوى رواية بكر، وحتى على من يكتب بالعامية التي تكاد لا تفهم في البلد الواحد، ما أغرى أصحابها بدخول مسابقات الجوائز الأدبية، والطمع في كسبها.

أغلب هؤلاء لا همّ لهم سوى تسجيل الحضور، كي يكسب كل واحد منهم صفة روائي، وقد رأينا من يقدّم شخصه الكريم على فيسبوك مشفوعا بتلك الصفة، وكأنها جزء من هويته، والحال أنه لا يملك في رصيده سوى عمل رديء لا يتعدى حجمه مئة صفحة. مثلما رأينا من نشر رواية ضعيفة وصار يدعى إلى المحافل الأدبية ومعارض الكتب للحديث عن مشكلات الرواية.

ويبقى السؤال: لمن يكتب هؤلاء؟ بعبارة أخرى: هل تجد تلك الكتب قارئها؟ والجواب معروف إذا علمنا نسبة القراءة في الوطن العربي، وعدد الكتب التي يقرأها الإنسان العربي في السنة. أي أن تلك "المؤلفات"، برغم المحاباة وشراء الذمم والضّجّة الإعلامية، مصيرها أن تركن في رفوف مكتبة صاحبها، كي يتباهى بها أمام الزوّار. لم تسلم من ذلك حتى الكتب الجيدّة، فما البال بما لا يتوافر فيها الحدّ الأدنى. ثم ينتأ سؤال آخر: كيف يمكن للجان المسابقات أن تقرأ هذا الكمّ الهائل من الروايات وتسند جوائزها، إلى من يستحق، بنزاهة؟

والحقّ أن هذه الظاهرة ليست حكرا على الواقع العربي، ففي فرنسا مثلا تصاعد نسق كتابة الرواية ونشرها منذ مطلع الألفية بشكل يفوق حجم ما يمكن لقارئ واحد أن يقتنيه ويقرأه، ما يجعله يلجأ في أغلب الأحيان إلى ما يُكتب ويُذاع ويُبثّ عن آخر الإصدارات كي يهتدي إلى ما يناسب طاقته الشرائية والقرائية، ويستجيب لميوله الأدبية لاختلاف المضامين والأساليب.

ولكن إذا علمنا أن العناوين التي يُسلّط عليها الضوء دون سواها تفرضها شبكة العلاقات، والملحقون الصحافيون، وأصحاب المكتبات، والجمعيات الثقافية، أدركنا أن جانبا كبيرا ممّا ينشر لا يلقى حظه، لا في الملاحق الأدبية ولا في وسائل الإعلام وحتى المكتبات. ومن النادر أن يتفطّن ناقد نابه إلى رواية مهمّة لكاتب مغمور يخرجها من القاع قبل أن يطويها الإهمال، ويبقى صاحبها كالعابر في كلام عابر، وكأنه لم يكتب ولم يوجَد أساسًا.

فهل يصدّق عاقل أن الروايات الجديدة التي صدرت في فرنسا ما بين شهري أغسطس وسبتمبر الماضيين، وعددها خمسمئة وأحد عشر عنوانا، فضلا عمّا نشر قبلها منذ مطلع العام، وجدت قارئها؟ وهل يصدّق أن لجان الجوائز الكبرى مثل غونكور ورونودو وميدسيس وفيمينا قرأتها كلها؟

تسجيل الحضور

يكفي أن نعود إلى ما نشره منذ بضعة أعوام برنار بيفو، حين كان يترأس أكاديمية غونكور، لنعرف طبيعة عمل تلك اللجان، حيث لكل عضو منها طريقته في انتخاب ما يروقه. منهم من يطرح الكتاب جانبًا منذ الصفحة الأولى؛ ومنهم من يقرأ صفحات متفرقة بعجالة، فإن شدّته عاد يقرأه باهتمام أكبر؛ ومنهم من يخيّر الأسماء المعروفة في الساحة، وخاصة تلك التي تصدر عن دور النشر الكبرى أمثال غاليمار وغراسي وسوي وآكت سود، وبدرجة أقل فلاماريون وألبان ميشيل ومينوي؛ ومنهم من يبدأ بالمؤلفات التي نوّهت بها بعض الصّحف العريقة وزميلاتها الإلكترونية.

ثم يقع التركيز في النهاية على نحو خمسين عنوانا، ويرمى الباقي رمي المهملات. تلك القلة الباقية هي التي يقع التركيز عليها من خلال ما أسماه الناقد الفرنسي ألبير تيبودي (1874 – 1936) النقود الثلاثة: نقد الناس الشرفاء، ونقد المحترفين، ونقد الفنانين. وغنيّ عن القول إن تلك النقود، إلا ما ندر، تخضع للذوق الخاص لا محالة، ولكنها تخضع أيضا للمحاباة وقوانين السوق التي تنظّم كل بضاعة، فضلا عن الاعتبارات السياسية والأيديولوجية الكامنة.

ذلك الكمّ الهائل مما يكتب وينشر اليوم في فرنسا يعاني النقائص نفسها، بعد أن اقتحم المجال أشخاص عديمو الموهبة، يريدون هم أيضا تسجيل حضورهم بسرد حكاياتهم الشخصية، وتجاربهم الحياتية في ما صار يعرف بالتخييل الذاتي، كأن تروي إحدى الكاتبات تجربتها في أفلام البورنو، وتروي أخرى اغتصابَ أبيها إياها... أو الاستيلاء على قضايا الرأي العام لسردها بأسماء أبطالها، كما فعل ريجيس جوفري عن فضيحة دومينيك ستروس كان، تحت مسمّى آخر هو التخييل عن الآخر.

لا حقّ لأحد أن يمنع أيّا كان من خوض غمار التجربة الروائية، فالأدب يفتح بابه حتى للمتطفلين، وما من سلطة يمكن أن تحول دون ذلك، هذا أمر بدَهيّ، ولكن من حقّنا أيضا أن نبدي رأينا في هذه الظاهرة، ظاهرة هذا التراكم المطّرد من الكتابات السردية التي اكتسحت الساحة.

كتابة الرواية موضة العصر (لوحة للفنان سعد يكن)

الفنانة سماء يحيى تكتشف عالما آخر سرّيا مليئا بأحلام الأنوثة

القاهرة – في تجربة جديدة تحتفي الفنانة المصرية سماء يحيى بافتتاح معرضين في وقت واحد الأول بعنوان "بلد المحبوب" والثاني "حكاوي القهاوي"، وذلك يوم الأحد 6 ديسمبر في تمام السابعة مساء بأتيليه القاهرة وبحضور لفيف من المدعوين، فنانين ونقادا وجمهورا.

وعن عرضيها الجديدين تقول سماء يحيى "العرض الجديد ليس نوستالجيا ولا حنينا للماضي هو حالة من التفاعل مع ظواهر وأشياء كانت تشكل جزءا من حياتنا، المقهى كان وما يزال جزءا من ثقافة الشعب المصري منذ 'مقهى متاتيا' التي شهدت محاضرات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وسعد زغلول".

وتضيف "الآن تأتي الكورونا ومن قبلها غزو الكافيهات والتكنولوجيا لتقضي رويدا رويدا على ثقافة المقهى، كما حدث من قبل مع البيوت التي أصبحت تمتلئ بالبلاستيك وكماليات لا ضرورة لها، أحاول خلق عالمين أستعيد بهما الحياة خارج المنزل في عالم كان مقصورا على الرجال بما يهمّهم وما كان يشغلهم ويدور في أذهانهم، عالم مكشوف مفتوح وعالم آخر سري مليء بأحلام الأنوثة وعبق ودفء البيوت خلف الشبابيك والأبواب، 'حكاوي القهاوي' و'بلد المحبوب' هما رُؤيتي لمصر التي أحبها في لحظة راحة واسترخاء بعد يوم عمل شاق بعبقها وخصوصيتها".

وكتب الناقد الفني جمال القصاص عن الفنانة سماء يحيى أنها "لا تكف في معارضها وأعمالها عن التجريب وإطلاق طاقة المغامرة، ويبدو الفن في نظرها حزمة من الأفكار والرؤى والابتكارات، تشكل حالة من الحوار الدائم بين ثقافات وتراثات متنوعة، ما يجعلنا أمام فنانة مشغولة بـ'النظرة العملية للفن'، فالشكل لديها لا يستوي في اللوحة من تلقاء نفسه، وإنما بقدرته على خلق نافذة للحوار مع كل هذه الأفكار على مستويي الرؤية والمضمون معا". ويضيف القصاص "تمارس يحيى التصوير والنحت واللعب على مفردات مهمّشة ومهملة هي في جوهرها مجرد فتات وبقايا لحيوات كامنة في الماضي، ابنة البيئة المصرية بوجدانها وطبقاتها الشعبية الخصبة، والتي لا يزال عبقها يومض في الذاكرة، كأنه وعاء لحنين قادر على أن يجدد نفسه في اللوحة ويمنحها فرصة لابتكار صيغ وأساليب وحلول فنية تدفع إلى التطوير وإعادة النظر في ما كان، وما يمكن أن يكون".

عالم خفي خلف الشبابيك والأبواب

وفي معرضيها هذين "بلد المحبوب" و"حكاوي القهاوي" يبرز هم خاص بخيوط الوصل والقطع مع تجاربها السابقة، فكلا المعرضين يشكل خلفية للآخر، ما يعني أن نقطة التحول في التجربة ليست عشوائية، وإنما هي ابنة ضرورة، يفرضها الهم بالفن والانغماس في مخاطرته الأبعد، حيث يخرج الرسم من الإطار، لتتسع الرؤية في علاقات متجاورة ومتقاطعة، يكتمل وضوحها وتميّزها في اللوحة.

الصورة لا تعيش كمعطى بصري، يترك آثاره الخاطفة في الذاكرة، فحسب، وإنما بقدرتها على أن تكون عنصرا محفزا لتوليد أشكال أخرى وبخامات متنوعة، ربما أقل هدوءا وصخبا، وبحرفية بكر لا تخلو من طزاجة فنية.

لا تخطئ عين الرائي حضور التشكيلية سماء يحيى كصاحبة بصمة خاصة في حركة التشكيل الحديثة بمصر، وكواحدة من أبرز المتفاعلين مع الروافد الفنية المصرية بجذورها الفرعونية وطقوسها الشعبية وتمثلاتها الأنثوية بالمفهوم الأعمّ؛ الأرحب من أيقونة المرأة.

وكتب الناقد المصري شريف الشافعي عن سماء يحيى، معتبرا أنها من خلال جل أعمالها تسعى الفنانة في كل مرة إلى إثارة أسئلة كثيرة، وتفجر قضايا فكرية وثقافية وفنية عديدة على صعيد مشروع الحداثة وارتباطه بالموروث الجمالي، كما أنها تفتح الباب على مصراعيه أمام قضية تثوير هذا الموروث، وتقديمه مواكبا ومتفاعلا مع العصر دون تشويهه، ودون تقليده في آن معا.

وتتجلى وتتعدد رموز الأنثى في أعمال يحيى، وقد يتسع مجال التأويل لتتجاوز الأنوثة محدودية المرأة، فتحضر أنوثة الطبيعة وأنوثة المكان وأنوثة الكون كاملا، وهو ما نراه في معرضيها الأخيرين رغما اختلافهما عن معارضها السابقة.

وغالبا تحضر ثيمة المرأة وعناصر الأنوثة وهما متكررتان في أعمال سماء يحيى التي تقول "عيون النساء في أعمالي مرايا لحالاتهن الداخلية، فهن يحكين بعيونهن قصصهن الأزلية المتجددة من حزن وفرح وألم وأمل، الأنوثة ليست فقط في المرأة، فمراكبي مثلا إشارة إلى الأنثى، وحتى العرائس أيضا بكل أشكالها تحمل ما يختلج بصدور النساء. الأنوثة حالة وليست شكلا".

وتحضر العرائس الخشبية في هذا المعرض على غرار معارض سابقة للفنانة، وتشير يحيى في حوار سابق مع "العرب" إلى أن اهتمامها بالعرائس الخشبية جاء وليد الصدفة، فبينما كانت منهمكة في مشروع الخياطة ظهرت أمامها عروق الخشب الخاصة بسقف بيت جدها، ورأت فيها عرائس تنظر إليها، فما كان منها إلا أن جمعتها وأخرجت العروسة منها وأضافت لها كل ما يمكن أن يتعلق ببيت أو باب قديم من ترابيس وأقفال ومفاتيح وغيرها، لتكون هي حليات العروس.

وعن تلك التجربة بصحبة "العرائس" تستطرد يحيى قائلة "الفكرة التي استحوذت عليّ في تلك اللحظة لم تكن عمل تمثال، وإنما عمل عروستي الخاصة، لعبتي المتفردة، لتتطور الفكرة من تلقاء نفسها وتصبح مجموعة عرائس متنوعة الأشكال والأحجام والتراكيب".

«حكاوي القهاوي» و«بلد المحبوب» هما رُؤيتي لمصر التي أحبها في لحظة راحة واسترخاء بعد يوم عمل شاق

وفي أعمال سماء يحيى تتعايش العناصر كلها، القديمة والحديثة، في تكوين فني جديد متكامل.

وللفنانة يحيى نظرة خاصة إلى "العالمية"، فهي لا ترى مفهومها بمعنى السفر للخارج وعرض لوحات "على جدار الخواجة"، بل إن العالمية الحقيقية "هي إغراق في المحلية وتمسّك بالهوية وليست نقلا عما ينتجه الخواجة ومسخا له دون أساس أو فلسفة، والفن الأصيل هو ما يبقى ويصل بخصوصيته إلى الآخر دون وسيط".